

الآلة. ونجد النمط نفسه في فكر جان جاك روسو الذي ينظر إلى الإنسان في حالة الطبيعة ككيان عضوي مستقل حر بشكل مطلق، ويكتسب إنسانيته من داخله، خارج إطار المجتمع، ثم يدخل طواعية في علاقة مع الآخرين من خلال العقد الاجتماعي. وما إن يفعل ذلك، فإنه يفقد كل شيء ويخضع للإرادة العامة للمجتمع، حيث يتحول الفرد إلى ذرة أو إلى مجرد جزء في كل أكبر ليتحرك بقوة دفع ذاتية وكأنه ترس في آلة ضخمة (تمركز حول الذات يؤدي إلى ذوبانها واختفائها وانتصار الموضوع). وهذا هو أيضاً النموذج الكامن في فكر داروين وتلميذه هربرت سبنسر. فسبنسر استخدم نموذجاً عضوياً لتفسير المجتمع، ولكن هذا المجتمع، في نهاية الأمر، كان محكوماً بعدة قوانين محددة، وكأنه آلة تتحرك مدفوعة من الداخل بتناسق شديد. فالبقاء دائماً للأصلح، والصراع هو قانون الحياة، وحركة الكون تتبع إيقاعاً رتيباً متكرراً (حركة دائمة) فهي حركة من تجانس إلى عدم تجانس إلى توازن، وهذه قوانين طبيعية نهائية مطلقة، تتحرك وكأنها آلة تدفع الإنسان الذي يشبه الذرة.

وعلى الرغم من جدلية ماركس، فإن نفس النمط (أي الاختلاط بين الآلي والعضوي) واضح في نسقه الفلسفي. فصراع الطبقات (وهو صراع يعبر عن حركة ذرية مادية) هو الذي يدفع التاريخ من داخله، متبعاً نسقاً واضحاً من البساطة إلى التركيب، ومن الشيوعية البدائية إلى الشيوعية النهائية، عبر سلم منظم متصاعد من العبودية إلى الإقطاع إلى الثورة الصناعية، التي ستأتي بالطبقة العاملة، التي ستأتي بالخلاص لنفسها وللجميع. وكل هذا حسب قوانين علمية، قد تكون مركبة وعضوية عند جرامشي، وبسيطة وآلية عند ستالين، ولكنها قوانين عامة تنطبق على كل الظواهر في كل زمان ومكان. وتظهر الصورة المجازية العضوية في الحديث عن: كيف تلد الظاهرة نقيضها؟ وكيف يتلاحم الضدان ويلدان من تلاحمهما كلاً جديداً يتجاوزهما؟ وكيف نصل إلى درجات عليا من التركيب؟ وكلها صور مجازية من علم الأحياء، ولكنها حين تطبق على الإنسان تصبح صوراً مجازية آلية.